

مصر في يوم الذي يستمعون القول
بعبودية أحسنه وأحسن الذين هداهم
وأولئك هم أول الألباب

المعراج

١٣١٥

المعراج هو رحلة النبي صلى الله عليه وآله
صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء
والعشاء من مكة إلى بيت المقدس
فصلى على القبور ثم صعد إلى
سماوات الدنيا والارض والعرش
الجليل فاستمع من الله عز وجل
القول بعبودية أحسنه وأحسن
الذين هداهم وأولئك هم أول
الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان الاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الجمعة غرة رجب سنة ١٣٢٠ - ١٣ أكتوبر (تشرين) سنة ١٩٠٢)

﴿ الاسلام والنصرانية • مع العلم والمدنية ﴾

(وهو المقال الثالث لذلك الامام الحكيم • والاستاذ العظيم)

(نتائج هذه الاصول وآثارها في المسلمين)

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في اسلافهم
الأولين ؟ - فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بحيشه
على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق
الاعلى بست سنوات في رواية وتسع سنوات في رواية أخرى والاسلام
في طلوع فجره ، وتفتح نوره ، فكان من بقايا ما تركت الازمان الأولى
رجل مسيحي من يعقوبيين اسمه يوحنا النحوي كان في بدء أمره ملاحاً
يبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته فاذا ركب معه بعض أهل
العلم أصغى الى مفداكرتهم • ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم

وهو ابن أربعين سنة فبلغ فيه ما لم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عدَّ من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته يقول كثير من مؤرخي الفريين ومؤرخي المسلمين ان عمرو بن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعله ووقعت بينهما محبة ظاهر أمرها واشتهر حتى قال أحد فلاسفة الفريين : « ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الأفكار الحرّة والرأي العاني . بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع »

خالط المسلمون أهل فارس وسوريا وسواد العراق وأدخلوهم في أعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفتارهم بالرومية في سوريا ولم تغير بالعربية الا بعد عشرات من السنين فاحتكت الأفكار بالأفكار وأفضت سماحة الدين الى أن أخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

❦ اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية ثم العقلية ❦

وبعد عشرين سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام أخذ الخليفة علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه يحضُّ على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس الى ذلك . وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوم اليه دينهم وتببهم لطلبه شريعتهم . وان كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في أطراف بلادهم للنزاع في أمر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من من مصالحهم فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على

سنة الفطرة . فالبراعة في الآداب من علم بوقائع العرب وتاريخهم وقول
الشعر وإنشاء البيع من النثر قد بلغت في خلافة بني أمية مبلغاً لم تبلغه أمة
قط في مثل مدتها . وكان الخلفاء الأمويون يعلمون منزلتها ويرفعون
مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسيرة . ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر
دولتهم وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول .
نقل الخلفاء الأمويون دار الخلافة من المدينة الى الشام ولم يسيروا
في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين فقد جاء رسول من الفرس الى عمر بن
الخطاب رضي الله عنه فلما سئل عنه ذل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على
الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء وجاءت رسل الملوك الى معاوية
رحمه الله فاذا هو في قصر مشيد محلي البنيان بأجل ما يكون من الصنعة
العربية مزين بالجناح والرياض وينابيع الماء مفروش بأحسن الفرش يرى
الناظر فيه أنحر الأثاث والرياش . ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف
الدين أو حاد عن طريقه وإنما تناول مباحاً وتمتع برخصة آتاه الله إياها ولا
يخفى ما في ذلك من ترويح فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها
﴿ اشتغالهم بالعلوم الكونية في أوائل القرن الثاني ﴾

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ودالت
الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول
من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد
فصارت بمد ذلك عاصمة العلم والمدينة أيضاً . وأخذ المنصور ينشي المدارس
للطب والشريعة وكان قد جعل من زمنه ما ينفعه في تعلم العلوم الفلكية
وأكل حفيده الرشيد مasherع فيه وأمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة

لتعليم العلوم بأنواعها . وجاء المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها ، ونالت بها أكبر ثروتها ، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يمثل مئة بمير . وكانت من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يمطيه مكتبة من مكاتب الأستانة . فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي . ولايسهل على كاتب إحصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول صلى الله عليه وسلم

عن إنشاء دور الكتب العامة والخاصة

وقد أخذت دول الاسلام تعني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لاغير . وكان من نظامها أن تعار بمض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة . وكان فيها كرتان سماويتان احدهما من الفضة يقال ان صانها بطليموس نفسه وإنه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار . والثانية من البرنز . ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ ما فيها ست مئة ألف مجلد . وكان فهرستها أربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا انه كان في اسبانيا وحدها سبعون مكتبة عمومية . وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالمة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجمعون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه . يقال ان سلطان بخاري دعا طبيباً أندلسياً ليزوره فأجابه ان ذلك لا يمكنه لأن كتبه تحتاج الى أربعائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها . وكان حنين ابن اسحق النسطوري في بغداد ممن جعل

في داره مكتبة عامة يقد إليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يبرع
بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه .

نشأة انشأهم المدارس للعلوم وكيفية التدريس

عطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . تقول « على
سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير . فكنت تجد
المدارس في كل الاقطار - في المنول . في النثار من جهة المشرق . في
مراكش . في فاس . في اسبانيا من جهة المغرب .

كانت طريقة الاساتذة في التدريس أن كل مدرس يُعِدُّ درسه
ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد ان يكتب ثم يلقيه على
التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتباً وأمالٍ تنشر بين
الناس في كل علم . وهنا نبادر الى القول بأن المؤرخين قد أجمعوا على
ان جميع المقالات والكتب كانت تنشر ويتداولها الناس بدون أدنى
مراقبة ولا حجب ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب غير ان مؤرخاً
واحداً رأته ذكر أنه قد وضع قانون في بعض الممالك الاسلامية لنشر
كتب العقائد مقتضاه ان لا ينشر منها شيء الا باذن . على أنني لا أعلم شيئاً
من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام إسلاماً

نرجع الى الكلام في المدارس الاسلامية . يقول جيون في كلامه
على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب : « ان ولاية الأقاليم والوزراء
كانوا يناقسون الخلفاء ، في اعلاء مقام العلم والعلماء ، وبسط اليد في الانفاق
على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه . وكان عن ذلك ان ذوق
العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند

وبخارى الى فاس وقرطبة . انفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الربيع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة . وكان الذين يُفندون بالعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم المظالم في المملكة وابن أفقر الصنائع فيها . غير ان الفقير ينفق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتبي بمال أبيه . والمعلمون كانوا يُنقدون رواتب وافرة . اهـ

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الأزمان الى ثلاثة أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع . كان المباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الأندلس من أوروبا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) . ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب . وكان مرصد سمرقند قائماً في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك ، ومرصد جيرالد في الأندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك ،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشد النظمات وأدقها . ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته الا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته . وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوروبا على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في ساليرن من بلاد ايطاليا . وأول مرصد فلكي أقيم في أوروبا هو الذي أقامه العرب في أشيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الأدبية بجميع أنواعها، حتى القصص والاساطير الخيالية، في الأحوال الاجتماعية، وابتدأوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الأولين من تلك اللسان إلى اللغة العربية بالترجمة الصحيحة. وكان مترجموهم في أول الأمر مسيحيين وصباثين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين. وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها، وينقلوها إلى لسانهم على حسب ما يصل إليه علمهم فيها، وكان المعلومون لأبناء المظالم في أول الأمر من المسيحيين واليهود ثم انشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين. كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه

حجج علوم العرب واكتشافاتهم

كان علم العرب في أول الأمر يونانياً لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربياً. ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لأرسطو وأفلاطون أو أقليدس أو بطليموس زمناً طويلاً كما بقي الأوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا إن باكون هو أول من جعل التجربة والملاحظة قاعدة للعلوم المصرية وأقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بأراء المصنفين وأطلق العلم من رق التقليد. ذلك حق في أوروبا. أما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة. أول شيء تميز به فلاسفة العرب عن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربات وان لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في

العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة
الاوربيين : أن القاعدة عند العرب هي « جرب وشاهد ولاحظ تكن
عارفاً » وعند الأوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في
الكتب وكرر مايقول الاساتذة تكن عالماً » . (فلينظر المصريون وغيرهم
من الشرقيين كيف انقلب الحال ، وماذا أعقب من سوء المآل)

قال ديلا مبر في تاريخ علم الهيئة : « اذا عددت في اليونانيين اثنين
أو ثلاثة من الراصدين امكنك ان تمد من العرب عدداً كبيراً غير
محصور » . أما في الكيمياء فلا يمكنك ان تمد مجرباً واحداً عند اليونانيين
ولكنك تمد من الجريين مئين عند العرب ولهذا عدت الكيمياء
الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يمدون الهندسية
والفنون الرياضية من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على
القضايا النظرية ، وهي من أصدق الأدلة في الايصال الى المجهولات
كما هو معروف

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن
وهم أول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض . وقد اكتشفوا
قوانين لثقل الأجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول في غاية
الدقة والصحة كما وضعوا جداول للأرصاء الفلكية وكانت تلك الجداول
معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا
بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية

لا يمكنني في مقالي هذا ان أعد ما اكتشف العرب ولا ما زادوه في
العلوم على اختلاف أنواعها فذلك يحتاج الى سفر كبير . وقد أحصى ذلك

أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الأوربيين ومؤرخيهم . وربما يتيسر
لأبناء الأمة العربية أن ينشروا ذلك لأخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه
أسلافهم .^(١) ولكني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين^(٢) : « تأخذنا
الدهشة أحياناً عند ما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم
تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقى الكائنات العضوية وتدرجها
في كمال أنواعها فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا
يذهبون به الى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم علماً يشمل الكائنات غير
العضوية والمعادن . والأصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى
المعادن في أشكالها . قال الخازني : اذا سمع الشعب الجاهل ما يقال بين
العلماء ان الذهب قد تقلب في الأشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من
هذا أنه مرّ في صور معادن أخرى فكان وصاصاً ثم قصديراً ثم صفراً ثم
فضة ثم صار بعد ذلك ذهباً ولا يعلم ان الفلاسفة اذا قالوا ذلك فاعلموا
يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة
بالتدريج ومن طريق الترقى وهم لم يبنوا بقولهم هذا انه تقلب في صور
الأنواع المختلفة كأن كان ثوراً ثم حميراً ثم فرساً ثم قرداً ثم صار بعد ذلك
إنساناً اه ويقول الفيلسوف كوستاف لوبون : « ان العرب أول من علم
العالم كيف تنفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من انه ذهب
في حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال إن الروح لا بقاء لها بعد فناء

(١) قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات (مدينة العرب) في المجلد

الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الامبركاني

الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الأنواع . فإن هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الأنواع دون الاشخاص فانه قال كما قال ارسطو وغيره : ان الأشخاص توجد وتفتى وأما الأنواع فهي باقية لا تزول . وهذا باب آخر يفاير بالمرّة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر) ^(١) كما أخطأوا في قولهم عنده إنه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صورته والشكل يرجع اليه بمعنى انه يقنى في ذاته ولا يبقى في العالم باق آخر وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلماً وكان يعرف ان الاسلام لا يتأفي العلم وإنما يتأفي هذا الضرب من الوهم الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثره في طريق العلم أو الاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا بعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه ^(٢) ولكني لا أنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلامذة ابن رشد فان في كلامه ما يدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ممتدة بين دقات الدفاتر مقبورة بين جدران المكاتب أو مخزونة في بعض الرؤس كأنها أحجار ثمانية في بعض الخزائن لاحظاً للإنسانية منها سوى النظر اليها - صار عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازاً للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له . وليس في الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل - في إخراج اوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم وفي تعليمها

(١) و (٢) قد سبق ذلك في المقالة الاولى التي رد بها الكاتب على الجامعة

كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها ان التجربة والمشاهدة هما الاصلان اللذان ينبنى عليهما العلم -- انما هو للمسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والأدب المحمدي عندما دخل الى ايطاليا ان البابا كان غائبا لأن كرسيه كان انتقل الى فرنسا في أفنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك . ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا . اه

ويقول آخر : « لا أدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عدداً من الفلكيين يطول سرد أفرادهم وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشر قرناً في اوربا ولم تمنحنا فلْكياً واحداً »

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصاً بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء . وانما كان التفاضل بالجد والمعمل . والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء وعمالمهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته . قال بعض فلاسفة الغربيين قولاً يعرفه الحق وثبته المشاهدة : « ان شعوب الأرض لم تر قط فاتحاً بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولا ديناً بلغ في لينه ولطفه هذا الحد »

﴿ أخذ الخلفاء والأمراء . بيد العلم والعلماء ﴾

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معاً كانوا هم بأنفسهم المتعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها . كانوا العالمين الماملين . كان خليفة كالمأمون يضطهد أحياناً أعداء الفلسفة وقد عرف التاريخ كثيرين من أرباب الشهرة الذين قضوا في سجنه الشهور أو السنين لأنهم كانوا

يعادون الفللفة ظناً منهم ان منها ما يدعوى على الدين فيفسده . هل رأيت في غير الاسلام رئيساً دينياً يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لملك لا يتجده أبداً كان أهل العلم والأدب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والأصراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كان حالهم . وسأضرب المثل بالشيخ أبي الملاء المرعي لشهرته بين الناس بما يشبه الزندقة : يذكر علي بن يوسف القعطي أن صالح بن مرداس صاحب حلب خرج الى المرة وقد عصى أهلها عليه فنازلها وشرع في حصارها ورمها بالمنجنيق فلما أحس أهلها بالقلب سمعوا الى أبي الملاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فأكرمه صالح واحترمه ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الأمير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده ، وكانهار البالغ قاط وسطه وطاب برده ، « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » فقال له صالح قد وهبتها لك . ثم قال له انشدنا شيئاً من شعرك لترويه فانشده على البديهة أبياتاً فيه فترحل صالح . فانظر كيف وهب الأمير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف . ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الأصراء والخلفاء لطلال بي المقال أكثر مما طال وفيما سبق كفاية لمكتف

﴿ إزالة شبهتين وبيان حقيقة الاضطهاد ﴾

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم ما يخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر وهمس بعضهم في آذان بعض وتفاضلهم على أهل الفضل ولزمهم إيامم بالألقاب بل واحقارهم في بعض الأحيان وهذا النوع منه عند المسلمين بلا تكبير . وهو خطأ ظاهر لأن

هذا النوع مما يكره أهل العلم لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مها بلغ أهلها من الحرية ومما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها فان القائم على عتيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يعتقدون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يخلق عليهم أحزاب الكاثوليك ما لم يقولوه ويرون ان النظر في كتبهم لا يجوز في شريعة الدين . ونحن لانرتاب في ان نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء وإنما هي نفرة الانسان مما لا يعرف مع ترك صاحبه وشانه يمضي في سبيله الى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا ان بعض أرباب الأفكار قد أخذوا السيف لفلوّه في فكره فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به الى منتهى ما يبلغ به وليس يصح أن ينكر ما صنع الخليفة المنصور وغيره بالزيادة وأقول : ان كثيراً من الفلّوا اذا انتشر بين العامة أفسد نظامها وأضرّ بأمنها كما كان من آراء الحلاج وأمثاله^(١) فتضطرب السياسة للدخول في الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر لا لأنه تفكر ولكن لأنه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقاً له وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غلوائه فلماذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينقئ منهم المجتمع صوتاً له عما يزعم أركانه . ونحن نرى الفلسفة

(١) المنار — ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في اصول الدين انه كان بين الحلاج والجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة وان ذلك هو السبب في قتل الحلاج

اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة وان لا ينشأ شيء منها الا بإذن من الحكومة ومن لم يخضع لذلك تحل جميته وتقتل مدارسه بقوة السلاح . وقد ينق من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة ؟ ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ولكن الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ ان التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيء وف والتملكي والمهندس ؛ ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ومن مجلس الحديث الى مجلس الأدب . واذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الإقناع والإلزام وسقطت قيمة الفلوة في التعبير وأخذ التسامح بينهم مأخذها . كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح وكانت له منزلة عند المنصور تملو كل ذي منزلة عنده حتى قال له يوماً وهو خارج من بين يديه : « رميت لكل الناس حباباً فلقطوا الا أنت يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنه أن يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأساً

اذا عدّ عادّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الفلوة في الدين فما عليه الا أن ينظر

في أحوالهم فيقف لأول وهلة على ان الذي آثار أولئك عليهم ليس مجرد المصيبة للدين وأن ليست الفيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم . وإنما مجرد الحسد هو العامل الأول في ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الأذى يقع الا على قاضي قضاة (كان رشدا ورجوع الحاكم الى المنفوع عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لا يذاه الفلاسفة يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لا هلاك بعضهم بعضاً كما يشهد به الميان ويحكي لنا التاريخ فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين الفلاسفة لأن التحاسد أكثر ما يقع بين من لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وإنما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة أو ظن المخالفة للدين في شيء من العلم أو العمل لضيق الدين عن ان يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام . اللهم الا أن يكون حادث لم يصل إلينا

هذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفته وتيسيره لأولئك المخالفين ان يحتسبوا به متى رضوا بأن يستظلوا بظله . هل في هذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ، أفلا يبسم الاسلام عجباً وهو في أشد الكرب لمقوق أنبائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه ان لم يحسبه في أحبابه ، عند ما يراه يستدسه سهمه اليه ، ويجور كما يجور الجائرون في حكمه عليه ، ؟؟

﴿ الاسلام اليوم - او الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام ﴾

﴿ المقال الرابع لذلك الامام الحكيم ﴾

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا ان طبيعة الاسلام تأبي اضطراد العلم بمعناه الحقيقي وأنه لم يقع من المسلمين الأولين تمذيب ولا إحراق ولا شقنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعاً لهم ؟ أفلا يكون للأديب عنده فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بأن رجلاً في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ما ذهب اليه أئمة المسلمين كافة . ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل قد يكون مما رزى به أو ما يقرب من هذا وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله . فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العائم ، وسكنة الاثواب العباغب ، وقالوا انه مرق من الدين ، أو جاء بالإفك الميين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن . فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لا يحيف ، الخ ما يقال في الشكوى . فأجيب طلبه لكن لم ينفعه ذلك كله فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر مع انه لم يقل الا ما يتفق مع أصول الدين ولا ينكره القارىء والكاتب ، ولا الآكل والشارب ،

ألم يسمع السامعون ان الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجنوب) كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول

المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأيه مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حرية وطالب الشيخ السنوسي ليطعنه بها لأنه خرق جريمة الدين ، واتبع سيدلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحرية لو لاقاه وإنما الذي خلص السنوسي من الطعنة ، ونجى الشيخ الأرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هو مفارقة السنوسي للقاهرة قبل ان يلاقيه الأستاذ المالكي .

هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين بأقلام بعض علماء الجامع الأزهر من المقالات الطويلة الأذيال الواسعة الأردان في استهجان إدخال علم تقويم البلدان (الجغرافيا) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الأزهر ؛ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون عن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وأنه إنما يريد النقص من علوم الدين . أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير الى الطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولاً يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ما عند علماء الأفغان والهند والمعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آباءهم الأقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول ان يرحزهم أصعباً عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تفهم ، وما عليه الحال اليوم في حكومة المغرب من الفلؤ في التعصب والمعاقبة بقطع بعض الأعضاء في شرب الدخان أو بالقتل

في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،
ثم الأيتخيل المؤمن انه يسمع من جوف المستقبل صخباً ولجياً وضوضاء
وجلبة ، وهيئات مضاربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الأزهر ان يدرسوا
طرفاً من مبادئ الطبيعة او يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؛ ألا تقوم
قيامه المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين ؛ : هذا عدوان على
الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تقرير بأهل المساكين ، ولا يزالون
يشيرون بهذا الى ان لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة الا الصقوه بهذه
البدعة في زعمهم

هل هذه الحال جديدة على المسلمين حتى يقال إنها عارض عرض
عليهم ، أو مرض من الامراض الوافدة اليهم ، ؛ لا يسرل على من يعرف
أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن ان هذه الحال
من العلال الطارئة على أمرجة الأمم خصوصاً عند ما يجد الوحدة في الصفات ،
والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلماً من شاطيء الاطلاق
وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهي :
« إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » وكلهم أعداء لكل
مخالف لما هم عليه وإن نطق به الكتاب واجتمعت عليه الآثار . اللهم الا فئة
قليلة زعمت أنها رفضت خبار التقليد وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها
وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث لتفهم أحكام الله منها .
ولكن هذه الفئة أضيق عطناً وأخرج صدراً من المقلدين وان أنكرت
كثيراً من البدع ونحت عن الدين كثيراً مما أضيف اليه وليس منه . فانها
ترى وجوب الاخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقليد به بدون التفات الى

ما تقتضيه الاصول التي قام عليها الدين ، واليه كانت الدعوة ، ولاجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحياء ، هل يمكن ان ينكر أحد جود النقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها واذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها اجتمعا عن إبداء الرأي واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها الى أن تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الأروقة في الجامع الأزهر فوقع الشك هل بلده مما لأهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب نص الواقف . فقال قائل لشيخ الواقف : ان كتب تقويم البلدان تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف فقال : إني لا أفنع بما في تلك الكتب وإنما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فيه (ممن مات) قال : ان هذا البلد من قطر كذا وهو الذي وقف الواقف على أهله . واذا قيل لأحدهم : إن الأئمة أنفسهم لم يمينوا مواقع البلدان ولم يضعوا لنا جدولاً لبيان ما يحويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها وإن أصول ديننا تسمح لنا بأن نأخذ بأقوال العلماء في هذه الفنون (وهم منا) وتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البسيطات قال : إنما أريد نصاً فقهياً ، لا دليلاً عقلياً ،

واذا قيل لهم : اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدكم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم اغوال الفقر ، فتضعفت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت

المزة ذلة ، والهداية ضلّة ، وساكنتم الحاجة ، وانفتكم الضرورة ، ولا تزالون
تألون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في اسباب ما كان
سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم و صار الناس اليه ، قالوا : ذلك ليس اليانا ،
ولا فرضه الله علينا ، وإنما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل
تلافيه ، فان لم يفعلوا ولن يفعلوا فذلك لأنه آخر الزمان وقد ورد في
الأخبار ما يدل على انه كائن لا محالة وان الاسلام لا بد ان يرفع من الارض
ولا تقوم القيامة الا على لكم ابن لكم . واحتجوا على اليأس والقنوط
بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولا تدع في نفس حركة الى عمل ،
رأي رنان في الاسلام : هذا الجود - الذي لو أردنا بيان ما امتد اليه

من طبقات الأفكار وثبات الوجدان لكتبتنا فيه كتاباً - هو الذي حمل
الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في
تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على أنني أخشى ان يثبت
الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ولكتني
أعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بأداب الدين الاسلامي
القديم وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جرائم جيدة تدل
على فكر واسع وعقل ميال الى المسائلة . الا أنني أخشى ان يمتنع هذه
الجرائم بتعصب بعض الفقهاء فاذا اختتمت قضي على الدين الاسلامي . ذلك
انه من الثابت الآن أمران - الأول ان التمدن الحديث لا يريد إمامة
الأديان بل مرة لأنها تصلح أن تكون وسيلة اليه . والثاني انه لا يطبق ان
تكون الأديان عشرة في سيده . فعلى هذه الأديان ان تسالم وتلين والا كان
موتها ضربة لازب » اه كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فن أين يكون هذا الجمود العام الذي سمح للطاعنين ان يحكموا على الاسلام بأنه عثرة في طريق المسلمين يسقط بهم دون ان ينالوا فلاحاً في سعيهم ، أو نجاحاً في أعمالهم ، من أين يكون هذا الجمود ان لم يكن من طبيعة الدين ؟ ومن أين يكون ما سردناه من الحوادث إن لم يكن ناشئاً من أصول الدين ؟ فان لم تسلّم بأن هذا اضطهاد وان الاضطهاد من لوازم الدين الاسلامي فعليك ان تسلّم بأنه عداوة للعالم أو اشمئزاز منه ، أو استهجان له أو احتقار لشأنه ، وأحد هذه الأمور كاف اذا عم بين المسلمين في ان ينفر بهم عن كل مجد ، وأن يجرمهم كل نفع ، وان يحقق فيهم ما تنبأ به رنان وغيره فما قولك في هذا ؟؟ (له بقية)

(المنار) سيأتي الجواب في الجزء الآتي وفيه بيان حقيقة هذا الجمود وأسبابه وكونه لا بد ان يزول ان شاء الله تعالى فانتظر العجب العجيب

الاجتماع السادس لجمعية أم القرى

يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٦

في الضحى الأول من اليوم المذكور تألفت الجمعية حسب معتادها وقرى الضبط السابق واستعدت الأذهان لتاتي ما يفرضه الله على السنة أهل الإيمان من الإخوان قال (الأستاذ الرئيس) مخاطباً (الشيخ السندي) انك يا مولانا لم تشاركنا في البحث الى الآن فترجوك أن تتكرم على إخوانك ببذرة من عرفانك تنور بها افكارنا وترجوك أن لا تحتشم من التعلم في بعض التعبيرات اللغوية لغاية المعجمة عليك فان لك أسوة بالفيروز آبادي والسعد والفخر وغيرهم .

فقال (الشيخ السندي) انكم ايها السادة الاخوان سراء افاضل الزمان ، وسباق فرسان كل ميدان ، قد اقدمتم وأجدمتم ولم تتركوا القائل من مجال ، ولا مثلي غير الإصفاء والامثال ، وإني احب ان اذكر لكم حاتي وفكرتي قبل هذه الاجتماعات وما